القصص

من الأدب التركي

المعلمة الصغيرة ..

ترجمة الآنسة الفاضلة (فتاة الفرات)

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

لم تكلمنى حتى وصلنا الى (سركه جى) حيث موقف الترام هناك فقالت :

— هنا كنت أنتظر ياسيدى ، وفى كل يوم كنت أركب الترام من هنا ، ولا أدرى كيف أخطأت فى هذه الليلة وركبت الترام الذاهب عن « الجسر » لا اليه ؟ ولا أدرى كيف لم أنتبه لذلك ؟ كان السبب كما قلت ياسيدى الظلام الحالك والمطر الكثير الذى أدهشنى ، لو تدرى ياسيدى كم انتظرت هنا تحت سيول الأمطار معرضة للهواء الذى يعصف بشدة ، وكم لقيت من الانتظار ، لقد ظننت أن غشاء أسود قد ستر عينى ، لا أقدر أن أصف لك اضطرابى حينما علمت منك أنها آخر عربة تسير فى الليل ، آه لقد تأخرت كثيراً . .

— لقد كانت كأنها فى حمية عن الكلام ثم تركتها فذهبت فيه مذهباً بعيداً وقالت :

— غريب جدا أن المصادفات فى بعض الأحيان تظهر للمرء عجائبها وغرائبها كأنها تسخر منه ، لقد فاتنى القطار أيضا فى « مقرى كوى » لذلك تأخرت حتى ذلك الوقت لأنى انتظرت هناك طويلا ، ولم يكن يخطر لى على بال أنى هنا سأركب فى آخر عربة تسير فى الليل وفى غير الجهة التى أقصدها .

فسألتها :

— إذن أنت آتية من مقرى كوى ؟

أخذت الكلفة ترتفع بيننا شيئاً فشيئاً لأن وجودى بجانبها طول المسافة التى قطعناها أظهرها على حسن نيتى وجعل لى فى قلب هذه الفتاة الشابة موقعاً حسناً فأجابتنى على سؤالى جوابا طويلاً مفصلا ، قالت :

أجل ياسيدى انى أذهب مرتين فى الأسبوع الى « مقرى كوى » لاعطاء درس خصوصى هناك لأحدى السيدات ، آه ياسيدى ! إن حياتى شقية جداً ، محتم علىّ أن أشتغل من الصباح حتى المساء فى جميع أنحاء هذا البلد الكبير ، تصور المسافات التى أقطعها كل يوم : ذهبت اليوم صباحا الى « طراية » وعدت منها إلى « مقرى كوى » وأنت تعلم تباعد هذه المسافات وتناثى بعضها عن بعض . على هذه الصورة يجب أن أشتغل فى أربعة أطراف البلد ؛ فاذا كان الصيف احتملت كل ذلك ، لأن النهار طويل أتمكن فيه من تأدية دروسى من غير كبير مشقة ولا عناء ، أما فى الشتاء فالمشقة فوق الطاقة وخاصة فى مثل هذه الأيام عند شدة النوء وكلب الشتاء ، لقد غلبنى اليوم البكاء أكثر من مرة ، ولا أتذكر أنى تأخرت مثل هذه الليلة ، وما الذى اقوله الآن فى البيت لوالدى ؟

وهنا انقطعت عن الكلام ولم تجسر على إتمام جملتها ، لأنها فجأة شعرت بخجل من سردها تاريخ حياتها ، ولما لم تجد فى نفسها القوة على إتمام كلامها غيرت مجرى الكلام وقالت وهى تنفض ذراعها المبتلة من المطر .

— لقد ابتلت ثيابى .

فقلت لها :

— إن مظلتك صغيرة فاطويها وخذى مظلتى فهى تحفظك من المطر .

ولكنها لم تقبل وقالت :

— أشكرك ياسيدى ! لا أود أن تبتل ثيابك أكثر مما ابتلت ، ألا يكفى ما تحملت حتى الآن من أجلى ؟

أردت أن أعود بها الى الحديث عن حياتها فقلت لها :

— إذن لك والد فقط يا آنسة ؟

— نعم ياسيدى . ثم قالت :

— أظننا قد بلغنا الجسر ؟

وسكتت كأنها لا تريد أن تبحث عن شيء أبداً ، ولكنها لم تتمكن من ذلك لأنها كانت في حاجة إلى أن تتكلم عن نفسها وأن تحدثني عن حياتها ، أجل ! بحاجة شديدة إلى ذلك ، فقالت :

— فقدت والدتي منذ سنتين ، ومنذ ذلك الوقت اضطررت إلى العمل الكثير . كانت والدتي في حياتها هي التي تشتغل لنا ، فلما ماتت ورثت تلك الوظيفة عنها وانتقلت إلى مرارتها وألمها . . هل لك والدة ياسيدي ؟

فأشرت اليها برأسي أن نعم ، على أنها ما كانت تنتظر مني جواباً ، لأن سؤالها هذا كان مقدمة لما تريد أن تحدثني به فقالت :

— إن أكبر تغيير يطرأ على حياة المرء يبتدي من تاريخ وفاة أمه ، لقد كنت حتى وفاتها أجهل الحياة وما فيها ، كنت في مدرسة داخلية لا أعرف من الحياة إلا قدر ما يقع عليه نظري بين جدرانها الباسقة ، لا أعرف شيئاً ولا أعرف أحداً أبداً ، فلما توفيت والدتي واضطررت إلى ترك المدرسة والبقاء في البيت علمت أنني أجهل كل شيء حتى أبي ؛ أما الآن فقد عرفت الحياة جيداً ، واختبرت أبناء آدم ظواهرهم وبواطنهم . لقد علمت كل ذلك ، ولم يكد يمضي على دخولي في معترك الحياة أكثر من شهر . ولكن من المؤلم جداً أن يقف المرء على تلك الحقائق دفعة واحدة لأن أعصابه تتزلزل بتلك الصدمة . لقد وصلنا إلى « الجسر » ياسيدي . أشكرك شكراً جزيلاً ، وهذه عربة هنا تقلني إلى البيت.

وهنا تهيأت لوداعي ، ولكني رأيت أن المصادفات قد وقفتني على قصة حياة مؤلمة ، فكنت أفكر في وسيلة أمد بها مرافقة تلك الفتاة حتى البيت ، فقلت لها .

كلا أيتها الآنسة ، إني سأرافقك حتى الجانب الآخر من « الجسر » لأني عدلت عن الرجوع إلى بيتي في مثل هذه الساعة وسأبيت بفندق هناك ، فلم تعارضني بل اكتفت بتلك الايضاحات وسرنا نقطع « الجسر » ونحن ساكتان .

كنا نمشي معاً على أحد جانبي الطريق ، وكنا نلاقي مشقة شديدة في إمساك مظلتينا بسبب ذلك الهواء الشديد البليل الذي كان يعصف من أحد جانبينا فيبلل ذلك الجانب . وفي تلك الأثناء أدارت نظرها فيما حولها وقالت :

— نعم إن بقاء الفتاة الشابة كل حياتها محرومة من عطف الوالدة وحنانها مصيبة ليست تضارعها مصيبة .

ثم استأنفت كلامها فقالت :

هل تدري ياسيدي ما الذي يقلق فكري أكثر من كل شيء بعد هذا التأخر ؟

كانت مضطربة تماماً واضطرابها يزداد شيئاً فشيئاً ، كانت تشعر أنها في حاجة إلى أن تقص على هذا الرجل الذي لا تعرفه ولا يعرفها الناحية التي خفيت من نواحي حياتها .

فسألها بسكون قائلاً :

— ماهو أيتها الآنسة ذلك الذي يقلقك ؟

قالت : والدي ! . ثم سكتت قليلاً وقالت :

— أراني لا أقدر أن أصف لك والدي وصفاً دقيقاً ، لا أدري كيف تنظر الى فتاة تشكو اليك من والدها لأول مرة رأيتها فيها ، ولكنك برافقتك لي حتى هذا المكان أثبت لي طيبة قلبك وصفاء نيتك ، وأنك بحسن تلك النية وبصفاء ذلك القلب ستدرك سلامة الأسباب التي ساقتني الى الشكاية ، أليس كذلك ياسيدي ؟.

كان الهواء يعصف بشدة ، فلم نقدر أن نضبط مظلتينا وتقاوم الهواء الشديد فأغلقناها وأخذنا نمشي غير مبالين بالمطر

محلات شملا

ابتداء من أول اكتوبر سنة ١٩٣٤

بمناسبة تغيير الشركة

توجد تصفية هائلة لبضائع قيمتها

٣٠٠٠٠ جنيه

ستباع بأسعار مدهشة

اغتنموا هذه الفرصة النادرة

القليل الذى ينزل ، بل خففنا السير لندرك وقتاً كافياً للتكلم معاً ، وقد اقترب كلانا من الآخر ، وكنا نسير متلاصقين بقلبينا وجسمينا كأننا قد تعارفنا منذ سنين لا منذ دقائق .

كانت هى فى حاجة الى أن تشكو الىّ همومها ، أجل ! كانت فى حاجة شديدة جداً الى أن تنشر كل ماخفى من نواحى حياتها ، وتبسطه أمام ذلك الرجل الذى ربما كان اجتماعها به مصادفة واتفاقاً أول اجتماع وآخره ، فقالت .

— اعلم ياسيدى أنى الليلة ككل ليلة سأجد والدى سكران طافحاً ، وحينما يرانى يستقبلنى بكلمات الشتم والتحقير ، وفى بعض الأحيان . . . . . ولم تتم جملتها كأنها رأت أنها قد اعترفت لى بأكثر مما يجب ، لذلك قطعت كلامها بسرعة وأتمت جملتها التى شرعت فيها بصورة أخرى ، فقالت :

— لا أذكر أن والدى عمل يوماً ما عملاً مثمراً يعود عليه وعلينا بربح ؛ كان فى شبابه صاحب مقهى صغير فى « بك أوغلى » ، وكان يأتى بمغنيات فى الشتاء الى قهوته ، وكانت والدتى إحدى أولئك المغنيات ، اشتغلت عنده ثم تزوجها ، وقد علمت هذه التفصيلات واحدة بعد أخرى مصادفة واتفاقاً ، ولا أدرى كيف تم الاتفاق بين أبى وأمى على الزواج الذى كنت ثمرته ، ولكن ظهورى فى الحياة كان سبباً لأمراض كثيرة أصابت والدتى ومصائب أخرى اضطرتها الى ترك العمل وأرغمت والدى على ترك المقهى . كانت والدتى موسيقية بارعة ، فبعد أن تركت المسرح صارت معلمة تعطى النساء دروساً فى الموسيقى ؛ وأنا أعرف والدتى وهى معلمة فقط ، لم تكن تملك دقيقة من دقائق حياتها ، بل كلها كانت رهن التعب والشقاء والتعليم والكدح فى سبيل القوت ، حتى اضطرت الى وضعى فى مدرسة داخلية ، أخرج منها فى الأسبوع مرة الى البيت ، أقول « البيت » وأنت تدرك بثاقب فكرك ماهو هذا البيت . كنا نسكن فى غرفتين فى الطابق الرابع من بناء كبير عال . كنت إذا جئتهما فى يوم عطلة أو فى يوم جمعة وجلستهما بعيدين عن الحياة العائلية كل البعد ، فأهرب منهما الى المدرسة . وكيف يكون البيت إذا كان لا يطبخ فيه طعام ، ولا تغسل فيه ثياب ، ولا يعمل فيه شىء مما يعمل فى البيوت ؟ كانت والدتى تشتغل بلا انقطاع لتحصيل القوت ، وكان والدى بلا انقطاع يشرب الخمر ؛ فهذان المخلوقان وإن كانا متقاربين جسماً يعيشان تحت سقف واحد ، فقد كانا متباعدين كل البعد معنىً ، وكنت أنا فى سرور لأننى بعيدة عنهما ، حتى أنى لم أكن أجد لهما فى قلبى مكاناً . استدعتنى يوماً مديرة المدرسة اليها وأخبرتنى بوفاة والدتى ثم قالت : « إن المرء تصيبه فى حياته مصائب جمة ، فيجب أن يتلقاها بكل ثبات وصبر » ، لم أجد فى ذلك الوقت وفاة والدتى مصيبة كبيرة كما قالت المديرة ، ولكنى أصبحت أحب والدتى بعد وفاتها ، آه لو تعلم كم أحبها الآن . . . . كم أحبها !

سكتت هنا قليلاً ، وقد شعرت من صدرها يعلو وينخفض من حسرة كامنة فى أعماق قلبها ، ثم قالت :

— منذ ذاك الوقت أصبحت الحياة على أضيق من سم الخياط . أخرجنى والدى من المدرسة ، وأخذ يسوقنى من مكان الى مكان . أجل ! أخذ يسوق فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، لاتعرف من الحياة إلا مارأته من نافذة المدرسة ، الى الأماكن التى كانت والدتها تعطى دروساً فيها لتقوم مقام أمها فى تحصيل اللقمة ! ومنذ ذاك الحين انتقلت الىّ وظيفة السعى وراء كسب القوت . وأنا الآن أسعى بكل قواى وأعطى دروساً ، وكل يوم أقطع مسافات شاسعة متعبة ، فمن « طرابية » الى « مغرى كوى » ، ومن « اسكدار » الى « بك أوغلى » ، ولكنى لاأدرى لماذا أشتغل كل هذا الشغل ؟ ولماذا أسعى كل هذا السعى ؟ . . إنهم يقولون لى (اشتغلى) وأنا أصدع بالأمر ! . .

كنا على وشك الوصول الى آخر « الجسر » فتراءت لنا أضواء « غلطه » ، فرأيت من الواجب أن أقول لتلك الفتاة المسكينة كلمتين أسليها بهما ، فقلت لها :

— لا تجزعى يا آنسة ، اصبرى وتجلدى ، فالصبر أقوى ما يعتمد عليه المرء فى طريق الحياة . فهزت رأسها الصغير وقالت :

— الصبر ياسيدى ! إن الانسان أوجد لنفسه كلمات خداعة يخدع نفسه بها ليتحمل مصائب الحياة . وازداد اضطرابها فقالت :

هل تعلم ياسيدى ماذا ينتظرنى فى البيت بعد كل هذه الأتعاب وهذه المشقات من الصباح حتى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ إن والدى فى مثل هذه الساعة يعود من الحانة يرسم فى مشيته لام ألف ، فاذا دخل المنزل جلس فى غرفته يتم ما فاته فى الحانة إنتظاراً لى ، وهو قد جعل لنفسه فى البيت حانة صغيرة ، فغرفته مملوءة بالزجاجات الفارغة والأقداح المكسورة والصحون القذرة ، لو رأيت كل ذلك لدهشت ، كثيراً ما سعيت لتكون غرفته نظيفة ولكنى لم أفلح ، فعدلت عن ذلك الآن وصرفت همتى إلى ترتيب غرفتى الخاصة وتنظيفها ، لله تلك الغرفة الصغيرة ! إنها صغيرة إلا أننى أجد فيها راحة كبيرة ، أنزوى فيها بعد

عودتي من العمل ليلاً وبعد أن آخذ قسطي من كلمات التحقير والشتم التي يستقبلني بها أبي إرضاءً لنفسه وكسراً لحدته ، هناك في غرفتي فقط أفهم معنى الراحة وأفسح المجال لدموع عيني أن تسيل فأجد السعادة في ذلك البكاء ، أغسل به قسماً مما تراكم على قلبي من الهم والبؤس .

تقول المسكينة « فأجد السعادة » ، حتى هذه الفتاة البائسة ترى أن في البكاء سعادة ، وفي هذه اللحظة لو لم أخش أن ترتاب بي لأمسكت يدها وشددت عليها بكل قوتي مظهراً ما بقلبي من الرحمة لها والاشفاق عليها .

فقالت بعد صمت قصير :

— أنا على يقين أنني هذه الليلة لن أقدر على تهدئته ، آه ليت شعري ما الذي سيكون لي منه ؟

فقلت لها :

— ولكنك أيتها الآنسة تشتغلين لأجل والدك ، أفلا يدرك تلك الحقيقة فيشكرك عليها ؟

وقفت عن السير في الحال ورفعت وجهها إليّ ونظرت في وجهي ولم تقل شيئاً ، إلا أنني أدركت في الحال مغزى نظرتها هذه وما تقصده منها ، كانت تريد أن تقول بها لمخاطبها الذي يدعي أنه خبير بالحياة « أنت غر قليل التجربة » ثم خطر ببالي خاطر فجائي فقلت لها :

— أيتها الآنسة : إذا كانت مرافقتي لك حتى البيت وإعطائي الايضاحات اللازمة لوالدك يفيدانك شيئاً فاسمحي لي أن أرافقك حتى منزلك .

ترددت قليلاً ثم فكرت ملياً وقالت — وأكثر ظنها أن ذهابي معها سيخلصها من تحقير أبيها ويقلل من حدته — :

— نعم ياسيدي أقبل لطفك هذا أيضاً .

ثم أضافت إلى جملتها هذه قائلة :

— لقد أثر البرد في جسمك فهل لك في قدح من الشاي أقدمه إليك إذا انتهينا إلى البيت ؟

ارتفعت الكلفة بيننا وأصبحنا صديقين . كنا في ذلك الحين نتجه نحو « غلطه قوله سي » فقالت :

أتراني لو لم تكن معي كنت أجسر على المرور وحدي من هذه الأماكن ؟ ثم وقفت فجأة أمام دار كبيرة وقالت « هنا »

دخلنا إلى صحن الدار المفروش بأحجار المرمر ثم أخذنا نصعد الدرج الحلزوني ، لا أدري كم صعدنا ، ولكني شعرت بدوار في رأسي وضعفت رجلاي عن حملي لأننا كلما انتهينا من طابق وقفنا قليلاً نستعيد قوانا للصعود إلى الطابق الذي فوقه . وقفت أخيراً وأنا أتنفس بقوة ، فقالت ضاحكة : لم يبق درج نصعده !

فدخلنا في دهليز صغير فيه ضوء ضئيل ووقفنا أمام باب ، فنظرت إلى وجهي ولم تجسر أن تطرق الباب فطرقته بظهر يدي فلم يجبني أحد ؛ طرقته مرة ثانية فسمعت صوتاً يشبه صوت حيوان وحشي ، ثم سمعت وقع أقدام تخطو رويداً رويداً خطوات غير منتظمة ، وشعرت باقتراب أنفاسه منا ، وأخيراً فتح لنا الباب وعاد من غير أن ينظر إلى ما وراءه وفي قلبه من الغضب والسخط عواطف يخشى بأسها .

دخلنا في ممر ضيق ووقفنا أمام غرفتين متقاربتين إحداهما مفتوحة فدخلناها وعلمنا أن الرجل لم يتبين أننا شخصان إلا بعد دخولنا غرفته ، فنظر إليّ متحيراً بعينيه المحمرتين من تأثير الكحول فقلت له : إن ابنتك اليوم قد وقعت في خطأ . .

كان عند كل كلمة ألقيها عليه في شرح موقف الفتاة وحالها ترتسم على وجهه المغطى بسحابة من البلاهة منشؤها ذلك الأدمان ابتسامة خفيفة وترتخي أعصابه وتنحل

كنت وأنا أسرد له القصة ، أنظر الى تلك السحنة البلهاء تارة ، وإلى غرفته أخرى . كان غائر العينين بارز عظام الخدين قد رجل شعره بدهن اللوز ليلمع ، وعلى وجهه مسحة شباب ميت قد أقامه ذلك الهرم المتصابي بقوة العلاج الذي كان يستعمله .

وكانت الغرفة قذرة بقدر ما تحويه هذه الكلمة من معنى ، وكان كل ما فيها عبارة عن : كراسي عتيقة مكسرة ، ومنضدة صغيرة كناضد المقاهي عليها مشمع أسود اللون ، وزجاجات حمر ونبيذ فارغات ، وصحون قذرة ، ومصباح قد طار من زجاجه قطعة فجعل مكانها ورقة سيجارة ينشر ضياء ضئيلا كأنه أنين باك موجع : وفيها فراش إن صح أن يسمى مثله فراشاً ، حولت نظري المتألم عن كل هذه الأشياء وقلت له :

— لقد جئت بالآنسة الى هنا وهأنذا أسلمها اليك .

فلما سمع مني تلك الكلمة ظهر ما لم يكن في الحسبان : ذلك أن والد تلك الفتاة المسكينة السكير البغيض الذي ابتدأ حياته أجيراً في أماكن الريب في « غلطه » وأمضى قسماً منها في مرقص أنشأه بنفسه ، تقدم مني مشيراً إلى فتاته الطاهرة التي كانت تنتظر النتيجة ، وقد تجلت عليه تماماً أمارات البله وقال :

— لقد ظهرت الحقيقة أيها السيد . . . !

ثم اقترب مني وقال وهو ينظر اليّ نظرة مرتاب :

— يظهر أن الآنسة قد وقعت من نفسك . . .

فأدركت سوء نية ذلك الرجل. كم كانت يدى فى تلك الدقيقة تود أن تصفع ذلك السكير ! حولت نظرى الى ابنته فوجدت وجهها قد علاه الاحمرار ، لأنها أدركت غاية والدها .

لله أنت أيتها الطفلة الصغيرة ! أيتها المخلوقة التي تشتغلين من الصباح حتى المساء لاشباع والدك ، هل أنت حقاً ابنة ذلك الرجل ؟!

حولت وجهها عني فلم أشك أنهـا فى تلك الدقيقة كانت تود لألمها من تلك المهانة التي لحقتها فى عصمتها وعفتها ، والجرح الذى أصابها فى كرامتها ، أن تهرب من بين يدى وتذهب الى حيث لا أراها فتبكى . . . وتبكى . . .

لم أجبه بشيء ما ، إن الرجل كان لا يزال ينظر اليّ نظرة المرتاب ، فأدركت أن من الواجب البعد عن ذلك المكان ، وكأنه أدرك ما دار فى خلدى ، فعرض عليّ مستهزئاً كأساً من « الكونياك » فقلت :

— شكراً . ليس لدى من الوقت ما يتسع لذلك .

وسرت نحو الباب ، فظهرت من الفتاة حركة تدل على أنها تود أن تخرج معى حتى الباب تودعنى . لكنها لم تجسر على ذلك فى بادىء الأمر ، ثم أقدمت عليـه وسارت ورائى . بقى والدها فى غرفته يضحك ضحكاً عالياً كأنه يعلن به ما قاله أولاً :

« يظهر أن الآنسة وقعت من نفسك !! »

تبعتنى الفتاة حتى باب الدار وقالت بصوت تخنقه العبرات :

— سيدى . . .

ثم اضطربت ولم تستطع أن تتم جملتها .

حينذاك أخذت يدها وهى فى القفاز بكلتا يدى ، وشددت عليها مظهراً ألمى على تلك الزهرة الناضرة التى نبتت فى ذلك المكان الملوث ، وحكم عليها أن تعيش فيه عيشة حقارة ومهانة وقلت لها :

— أيتها الآنسة : أكرر لك جملتى السابقة وأقول . إن الصبر أقوى ما يعتمد عليـه المرء فى طريق الحياة . لا أظن أننا نلتقى مرة أخرى ، ولـكن كونى على ثقة أننى دائماً سأتمنى لك من صميم قلبى السعادة والهناء .

فانحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وسالتا على خديها ثم استقرتا على صدرها ، أعلنت بهما شكرها لى .

ففررت من ذلك المحل ، وكنت وأنا أنزل الدرج أقول فى نفسى :

« لقد وعدتها أن أتمنى لها دائماً السعادة ، ولـكن أين منها السعادة ؟ ! »

لعمرى لو رأيتها حين يبدى الربيع نواره ، وينثر على بسط الزبرجد أزهاره ، على عربة من تلك العربات الفخمة ، التى يركبها صائدات القلوب وسالبات الجيوب ، وهى متجهة نحو « شيشلى » حيث تموت الفضيلة ، وتحيا الرذيلة ، تسلم على أحبابها بابتسامات غريبة وإشارات مريبة ، لم أعجب لذلك بعد الذى رأيت من حالها مع أبيها .

ما أتعس تلك الفتاة الصغيرة ! إنها بين شقاءين : شقاء الحاضر بأبيها المختبل ، وشقاء المستقبل بشرفها المبتذل .

نزيلة بطليك — فتاة الفرات

تفسير سورة الفاتحة

للإمام

الفخر الرازى

به عشرة آلاف مسألة ما بين لغة واجتماع وأدب وتاريخ وتصوف الخ

ثمنه عشرة قروش صاغاً

يطلب من المطبعة المصرية بالأزهر تليفون ٥١٧٠٤